مكانة الوحدة الموضوعية عند المفسرين وعلاقتها بتفسير القرآن الكريم

Dr. Phayilah Yama
Zaidul Amin Suffian Ahmad
Kolej Universiti Islam Antarabangsa Selangor

Dr. Zainora Daud
Universiti Sains Islam Malaysia

الملخص

تقوم هذه الدراسة في مكانة الوحدة الموضوعية، وهذا النوع من الترابط المعجز في القرآن الكريم له فوائده التربوية، ولم تنله عناية الدارسين للقرآن الكريم ومفسريه بالقدر الذي يليق بخطورته وأهميته. فكثير من سور القرآن الكريم متعدد الموضوعات، وذلك يبدو من النظرة الجزئية لكل موضوع في السور هذه، ولكن النظرة الفاحصة المتأملة للسورة ككل تضع فكر القارئ للقرآن الكريم أو التالي له عند موضوع واحد تدور حوله السورة، وتتشكل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا الموضوع، وتسهم في جوانبه ومجالاته ليؤدي كل منها إلى غاية واحدة وهدف واحد، هي غاية هذا الموضوع الواحد وهدفه الذي تدور حوله السورة القرآنية.

الكلمات المفتاحية: الوحدة الموضوعية، الإعجاز القرآني، التفسير القراني، المفسرين.

التمهيد:

أن وجوه إعجاز القرآن الكريم متنوعة ومتعددة، فهو معجز في بيانه وأسلوبه، وهو معجز في تقسيمات عباراته وموسيقاها، وهو معجز في موضوعاته وملاءمتها لحاجة البشر وحياتهم، وهو معجز في إنبائه عن الماضي، وعن المستقبل. فكثير من سور القرآن الكريم متعدد الموضوعات، وذلك يبدو من النظرة الجزئية لكل موضوع في السور هذه، ولكن النظرة الفاحصة المتأملة للسورة ككل تضع فكر القارئ للقرآن الكريم أو التالي له عند موضوع واحد تدور حوله السورة، وتتشكل موضوعاتها الجزئية بجوهر هذا الموضوع، وتسهم في جوانبه ومجالاته ليؤدي كل منها إلى غاية واحدة وهدف واحد، هي غاية هذا الموضوع الواحد وهدفه الذي تدور حوله السورة القرآنية.

المبحث الأول: التعريف بالوحدة الموضوعية

أولاً: تعريف الوحدة:

الوحدة لغةً: وحد بحدّ، وحدا ووحدة وحِدَةً ووحدا مثل وعد في التصريف، والوحدة الانفراد فهو وحيد أي منفرد[١٨].

فذكر الراغب الأصفهاني: "الوحدة الانفراد، والواحد في الحقيقة هو الشيء الذي لا جزء له البتة ثم يطلق على كل موجود[١٩].

الوحدة اصطلاحاً: فالوحدة كون الشيء بحيث لا ينقسم وتطلق يراد بها عدم التجزئة والانقسام[٢٠].

ثانياً: التعريف "بالموضوعية":

الموضوعية لغةً: من وَضَعَ يَضَعُ وَضْعاً مَوْضِعاً ومَوْضُوعاً، والوضع يطلق أولاً على الحط مثل وضعت رحلي أي حططته، ووضعت المرأة ولدها أي ألقته[٢١].

الموضوعية اصطلاحاً: القضية التي تعددت أساليبها وأماكنها في القرآن الكريم، ولها جهة واحدة تجمعها، عن طريق المعنى الواحد، أو الغاية الواحدة[٢٢].

الوحدة الموضوعية كمركب وصفي: اتحاد الموضوع الذي ذكر متناثراً، وأنه لا تباين فيه ولا اختلاف، بل يؤلف وحدة موضوعية له كاملة كما نقول بعبارة أخرى (وحدة الموضوع)[٢٣].

وأما الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم فالمراد منها: البحث عن القضايا الخاصة التي عرض لها القرآن الكريم في سوره المختلفة ليظهر ما فيها من معانٍ خاصة تتعلق بالموضوع العام الذي نبحثه لنحقق الهدف وهو (الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم)[٢٤].

إذن فالمراد بالوحدة الموضوعية أن يكون العمل الفنيّ متماسكاً إلى أبعد درجات التماسك بحيث إنّ كل جزئية تفضي إلى التي تليها، ولا يمكن حذف جزئية واحدة لأن العمل الفنّي يستغني عنها، أو إضافة

---

[١٨] حجازي، محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ط، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م)، ص ٣٢.

[١٩] الأصفهاني، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، ص ٦٢٠.

[٢٠] حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ٣٢.

[٢١] زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجيل، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م)، م ٦، ص ٩٠-٩١.

[٢٢] سعيد، **المدخل إلى التفسير الموضوعي**، ص ٢٠.

[٢٣] حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ٣٣.

[٢٤] حجازي، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم**، ص ٣٤.

جزئية أخرى يفتقر إليها. وينبغي أن نقرر ابتداءً أن القرآن الكريم يجمع أحسن ما يكون بين الناحيتين: الفنية والدينية، وأن الناحية الفنية وسيلة دائماً للناحية الدينية، ويستحيل فصل الواحدة عن الأخرى[٢٥].

المبحث الثاني: أقوال العلماء في قضية الوحدة الموضوعية ونشأتها

المطلب الأول: أقوال العلماء السابقين وجهودهم في قضية الوحدة الموضوعية:

حاول بعض المفسرين والمشتغلين بعلوم القرآن الكريم أن يقفوا على موضوع السورة هذا، ولكن ذلك لم يتعد المحاولات كمّاً وكيفاً مع ما لهذا الجانب من مكانة كبرى، ومن العلماء الأوائل الذين تطرقوا إلى الحديث عن موضوع السورة ما بين الإطناب والإيجاز منهم:

أولاً: أما عن أول من سلك هذا المسلك في تفسير القرآن، فيرى الدكتور مصطفى الصاوي الجويني أن عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥هـ) الذي يمثل فكر مدرسة – الاعتزال – وطريقة بحثها، حيث كانت تحيط القرآن بالنظرة الشاملة، وبالتقصي الجزئي لآيات القرآن وموضوعاته، وأول من أشار في كتاباته إلى التفسير الموضوعي، قال: ولعل الجاحظ حين سلك مسلك مدرسته هذا؛ ووسع نظرته الشاملة إلى القرآن متنبه إلى ما ننادي به اليوم من تفسير موضوعي للقرآن، يتناوله موضوعاً موضوعاً في وحدة متكاملة، وفي نسقها التاريخي[٢٦]. ويمثل لذلك بدرس الجاحظ لموضوع النار في القرآن. وموضوعات أخرى مثل ما ذكر به الكلب في القرآن من مديح، أو ذم، وبعض أنواع العذاب المذكور في القرآن كالعذاب بالجراد، والقمل، والماء، وموضوع الملائكة في القرآن. ويقول: حقاً لم يطبق الجاحظ منهج التفسير الموضوعي بتفصيلاته كما نفهمه اليوم، ولكن على كل حال هو مدرك لأصل الفكرة، وهو أن يكون الموضوع القرآني محور التفسير في نسق تاريخي متكامل. ومع موافقتي للإمام الجويني في ما ذهب إليه من تفطن الجاحظ لهذا اللون من التفسير في وقت مبكر من تاريخ الدراسات القرآنية[٢٧]. وقد كان الإمام الجاحظ في هذا المقام أكثر وضوحاً، وأعمق إدراكاً لمفهوم التفسير الموضوعي في القرآن؛ ولكن هذا الإدراك لم يأتِ من فراغ، فقد كان لمصنفات الحديث النبوي التي بوِّبت أقوال رسول الله ﷺ، وأفعاله تحت موضوعات محددة كأبواب الإيمان، والطهارة، والصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، أثر لإحاطة القرآن بنظرة شمولية أدت مع طول النظر والتأمل إلى تأكيد أهمية البحث في موضوعات القرآن موضوعاً موضوعاً[٢٨].

---

[٢٥] باجودة، حسن محمد، **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف** (جدة: مكتبة تهامة، ط ٢، ١٩٨٦م)، ص ٤٥.

[٢٦] الجويني، مصطفى الصاوي، **مناهج في التفسير** (الإسكندرية: منشأة المعارف، د. ط، د. ت)، ص ١٥٨.

[٢٧] الجويني، **مناهج في التفسير**، ص ١٦٠.

[٢٨] الجويني، **مناهج في التفسير**، ص ١٦٢.

ثانياً: ولعلّ الإمام أبا بكر محمد بن الطيب الباقلاني (ت٤٠٣هـ) أول المصرحين بذلك التناسق العجيب الذي يحكم أسلوب القرآن، وليس ذلك في آية دون آية، وسورة دون سورة، وفصل دون فصل، وقصة دون قصة، ومعنى دون معنى، ويقول الباقلاني: "انظر بعين عقلك، وراجع جلية بصيرتك، إذا تفكرت في كلمة كلمة، ثم فيما ينتظم من الكلمات، ثم إلى أن يتكامل فصلاً وقصة، أو يتم حديثاً وسورة، لا بل فكر في جميع القرآن على هذا الترتيب، فلم ندّعِ ما ادعيناه لبعضه، ولم نصف ما وصفناه إلاّ في كله"[٢٩]. والشيء الذي يذكر بالإعجاب له في هذا الصدد، أنه تناول النظم كظاهرة كلية في القرآن كله، فسبق بذلك المفكرين في العصر الحديث الذين يتناولون نقدهم العمل الأدبي بوجه عام؛ لأن الأوصاف التي ذكرها لفكرة النظم مستنبطة من القرآن كله كوحدة متكاملة الحلقات، متصلة الجوانب، فهي شائعة فيه منبثة في تضاعيفه تراها في السورة الواحدة[٣٠].

ثالثاً: وقد تبع الباقلاني الإمام جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت٥٣٨هـ)، وأكد على الوحدة الفنية في السورة، قال: "أن من فوائد تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً، أن التفصيل سبب تلاحق الأشكال والنظائر، وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني، ويتجاوب النظم، ولكن الإمام الزمخشري لم يطبق ذلك عملياً، وعليه فلا يفهم من كلامه رحمه الله أنه يقول بوحدة الموضوع في السورة، بل يقصد أن آيات السورة تتلاءم آياتُها، وتتناسب ألفاظها، وتتناسق معانيها، وحدة تتلاحظ معانيها ويتجاوب نظمها. فقضية الإعجاز هي التي أفرزت وحدة السورة الفنية، ولم تحظَ السورة بنظرات مستقلة، أو بأبحاث مفردة، من قبل علمائنا للتعرف على خصائصها ونظامها، مما أدّى إلى بقاء هذه القضية مجرد كلام نظري، أو تطبيق لم يستكمل أركانه، ولم ينضبط منهجه[٣١].

وبعد هذا كله، ندرك أن القول بإثبات الوحدة الموضوعية في السورة القرآنية بصورة جلية يثبت ارتباط الآي بعضها ببعض، فتتناسق آياتها، وتتلاحم حتى تكون كالسبيكة الواحدة. ولهذا ردّوا من التفاسير كل ما يخالف الهدف الذي سيقت له السورة حتى يكون موضوع السورة أساساً في فهم آياتها. وهذه عبارة عن نبذة موجزة في جهود السابقين للتفسير الموضوعي في القرآن، ورغم أنهم جردوا كتباً للبحث في موضوعات محددة، إلاّ أنّ منهجيتهم فيها لم تكن لتختلف عن بقية المناهج في العلوم الأخرى، فمن بحث في موضوع الأحكام مثلاً، كان كل همّه أن يبيّن الحلال والحرام في الآيات المفسرة، وعرض مذاهب

---

[٢٩] الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، شرح وتعليق: محمد بن المنعم خفاجي (مصر: مطبعة محمد صبيح، د. ط، ١٩٥١م)، ص ٢٢٦.

[٣٠] عامر، فتحي، **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ** (الإسكندرية: منشاة المعارف، د. ط، د. ت)، ص ١٧٧.

[٣١] الجندي، درويش، **النظم القرآني في كشاف الزمخشري** (مصر: دار النهضة، د. ط، ١٩٦٩م)، ص ٢٢١.

العلماء فيها، دون التطرق إلى البعد الحضاري لهذه الأحكام، وكان أكثر هذه الكتابات يدور بعضها في فلك بعض[٣٢].

المطلب الثاني: أقوال العلماء المعاصرين وجهودهم في قضية الوحدة الموضوعية:

أن المتأخرين لم تتبلور لديهم منهجية شمولية في البحث في الوحدة الموضوعية في سور القرآن[٣٣].

أولاً: وألف الأستاذ عبد الحميد الفراهي الهندي (ت١٩٣٠م) كتاباً سماه "نظام القرآن"، أصّل فيه منهج استخراج الوحدة الموضوعية في السورة، ويقصد بالنظام معرفة روابط الكلام وتركيب أجزائه، وتناسب بعضه، أو هو عمود الكلام وحسن ترتيبه سواء كان الكلام جملة واحدة أم عدة جمل، فلابد من الوحدة في نظمه وإلاّ كان الكلام منتشراً[٣٤]. ثم قسّم الكلام إلى أجزاء تركيبية (تفصيلية)، وأجزاء إجمالية. فالأجزاء التفصيلية فمنها التعليل والتفريع، والتأصيل والتفصيل لمجمل، والتمثيل وإيراد المتشابه، وإيراد المقابل والضّد، والتنبيه بالوعد والوعيد، والتحسين والتقبيح. أما الأجزاء الإجمالية فمنها العمود والتمهيد والمنهج والخاتمة. ويقصد بالعمود هنا "جماع مطالب الخطاب فإليه مجرى الكلام، وهو المحصول والمقصود منه، فليس من أجزائه الترتيبية، ولكنه يسري فيه كالروح والسر.

ثانياً: وأما الشيخ محمد علي الصابوني فقد ألف كتاباً سمَّاه "إيجاز البيان في سور القرآن"، وقد خصصه لبيان المحور الذي تدور حوله كل سورة من القرآن الكريم وموضوعها الأساسي، وقد بيّن فيه أيضاً الموضوعات التي تشتمل عليها كل سورة، تلك الموضوعات الجزئية التي يتشكل منها الموضوع الرئيسي، والكتاب بهذا يعتبر إسهاماً كبيراً في الموضوع الذي نحن بصدده، ولكن يؤخذ عليه أنه سرد الموضوعات الجزئية سرداً دون أي يربطها بالموضوع الأساسي، أو يبرزه من خلال بيانها، وهذه نقطة ينبغي أن يُلتفت إليها حتى تتضح براعة القرآن الكريم في ذلك وإعجازه[٣٥].

ثالثاً: وممن ذهبوا إلى أن السورة موضوعاً واحداً كذلك الأستاذ سيد قطب، فهو يذهب إلى أن السورة لها موضوع واحد أو عدة موضوعات ولكن هذه الموضوعات مشدودة إلى محور واحد تدور حوله السورة وسنعرض بعض النصوص التي تثبت ذلك: فيقول: "يلحظ من يعيش في ظلال القرآن أن لكل سورة

---

[٣٢] الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير** (بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ط، ١٤١٤هـ)، ص ٦٧.

[٣٣] الدغامين، زياد خليل، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** (عمّان: دار البشير، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م)، ص ١٠٥.

[٣٤] الفراهي، عبد الحميد، **دلائل النظام** (الهند: المطبعة الحميدية، د. ط، ١٣٨٨هـ)، ص ٥٠.

[٣٥] الصابوني، محمد علي، **إيجاز البيان في سور القرآن** (د. م: مكتبة الغزالي، ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ص ١٦٥.

شخصية مميزة، شخصية لها روح يعيش معها القلب كما لو يعيش مع روح حي مميز الملامح والسمات والأنفاس، ولها محور خاص ولها جو يظلل موضوعاتها كلها ويجعل سياقها يتناول هذه الموضوعات من جوانب معينة تحقق التناسق وفق هذا الجو"[٣٦]. ويقول كذلك عن سورة البقرة: "هذه السورة تضم عدة موضوعات ولكن المحور الذي يجمعها كلها محور واحد"[٣٧].

وخلاصة القول: أن هذا التفسير الموضوعي مصطلح معاصر، وأن البحث والكتابة فيه من باب تلبية حاجات مسلمي هذا العصر، وأن السابقين لم يعرفوه بالصورة التي نعرفها نحن الآن، وأنهم كانوا مشغولين بالتفسير التحليلي وفق ترتيب الآيات والسور في المصحف، وهذا لا يُعيبهم، ولا يُنقص قدرهم، لأنهم حقّقوا حاجات مسلمي عصرهم، ولا نطالبهم أن يرتقوا لمستوى حاجاتنا المتجددة[٣٨]. ولابد لنا أن نفرق في هذا المقام بين نوعين من الوحدة في السورة والوحدة الفنية أو ما أطلق عليه وحدة النظم، ثم الوحدة الموضوعية أو وحدة المعنى، ومن المؤكد أن الاتصال بينهما وثيق وقوي، لكن هذا لا يعني أن من قال بالوحدة الفنية أن يكون مدركاً للوحدة الموضوعية. وقد كان القول بوحدة النظم سابقاً على القول بوحدة المعنى؛ للاهتمام البالغ الذي أولاه علماؤنا لقضية الإعجاز القرآني الذي توجهت مباحثه فيما بعد إلى دراسة الأسلوب القرآني ونظمه[٣٩].

المبحث الثالث: كيفية معرفة الوحدة الموضوعية وتقسيماتها

المطلب الأول: كيفية معرفة الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم:

وسيتناول الباحث كل هذه الخطوات بشكل مفصل:

أولاً: استقراء النصوص القرآنية: إنّ جمع الآيات القرآنية في موضوع ما يتطلب القيام بعملية استقرائية لنصوص القرآن الكريم، لحصر الآيات المتعلقة بالموضوع الواحد، والتحقق من أنّ هذه الآيات تتعلق بذلك الموضوع، وتتصل به أي اتصال، وتتطلب هذه العملية الانتباه والحذر؛ لأن الباحث سوف يكتشف من خلال بحثه موقف القرآن في ذلك الموضوع، أو سيبرز حقائق قرآنية يكون لها شأن في المعرفة الإنسانية، والحياة العملية. والقيام بمحاولة قراءة القرآن الكريم مرات ومرات، من قبل متخصصين ذوي علم بأساليب القرآن ومعانيه، وتحديد الآيات التي لها تعلق بذلك الموضوع، ثم يُستأنس بعد ذلك

---

[٣٦] قطب، سيد، **في ظلال القرآن** (بيروت: دار الشروق، ط ١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م)، ج ١، ص ٢٨.

[٣٧] قطب، **في ظلال القرآن**، ج ١، ص ٢٨.

[٣٨] الخالدي، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق**، ص ٣٩.

[٣٩] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٩٦.

بالمعاجم على اختلافها[٤٠]. لقد تأثر بمنهج المدرسة الأدبية كثيرون، فقاموا كذلك يشترطون ضرورة ترتيب الآيات على نسقها التاريخي، فقد ذكر بعضهم بضرورة ترتيب الآيات حسب نزولها على النبي ﷺ مع الوقوف على أسباب نزولها[٤١]، وكل الذين كتبوا في التفسير الموضوعي منهم لم يأخذوا بهذا الشرط، ولم يطبقوه بشموله في الدراسة الموضوعية إلاّ في موضوعات الأحكام، وفي الموضوعات التي تتوقف معرفة بعض آياتها على أسباب النزول، لكن الذين درسوا موضوعات العقيدة، والأخلاق مثلاً لم يدرسوها على ضوء هذا الشرط، فبقي شرطاً نظرياً، لا تسعف المراجع المتوفرة بالوقوف عليه على وجه الدّقة والصحة، لكن يؤمّل فيمن يأخذه بعين الرعاية والاهتمام ممن لم تفتر هممهم، ولم تكلّ عزائمهم الوصول إلى ترتيب تاريخي للقرآن الكريم[٤٢].

ثانياً: ضرورة النظر في المكي والمدني: إن النظر في الآيات المكية، والآيات المدنية في ذلك الموضوع أمرٌ في غاية الأهمية؛ بسبب التدرج في معالجته لبعض الموضوعات خاصة تلك التي لها تعلق بالأحكام، أو الحلال والحرام، فالترتيب على نطاق دراسة آيات الأحكام، وما تدرج الشارع في الأمر به، أو النهي عنه لا تصح الدراسة بدونه، بل حتى موضوعات العقيدة قد عرضت في القرآن المكي بطريقة وأسلوب مغاير لطريقة عرضها في القرآن المدني[٤٣]. فمعرفة المكي والمدني وملاحظة الملابسات التي حفت بنزول الآيات على حسب الوقائع، والأحداث تؤدي إلى معرفة منهج القرآن في طرح موضوعاته المتعددة سواء موضوعات العقيدة، أو الأخلاق، أو التشريع بوجه عام، فتحتذي في أعمالنا ومناهجنا التربوية، وأساليبنا في الدعوة إلى الله تعالى، ولذلك كان النظر في المكي والمدني من آيات القرآن أمراً ضرورياً في منهج البحث في التفسير الموضوعي[٤٤].

ثالثاً: ملاحظة البعد التاريخي والبيئي: وهو يُعد من الأمور المهمة بالنسبة إلى دراسة قصص القرآن خاصة، وحقيق بأن يحاط بأهمية وعناية قصوى في دراسة موضوعات القرآن الكريم. ومقصودنا به قريب من مقصودنا بالمكي والمدني، ولكن هنا على نطاق أوسع. فدراسة قصة آدم مثلاً ستكون مختلفة عن دراسة قصة نوح عليه السلام من حيث واقع الرسالة السماوية في كلا العصرين، ومواكبتها لحركة المجتمع في كل عصر من حيث الأحوال، والأوضاع التي كانت قائمة فيها. وعلى سبيل المثال إذا درسنا قصة شعيب مع

---

[٤٠] الدَّغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٣٥–٣٦.

[٤١] الفرماوي، عبد الحيّ، **البداية في التفسير الموضوعي** (مصر: د. ن، د. ط، ١٩٨٤م)، ص ٦٢.

[٤٢] الدَّغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٣٦.

[٤٣] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٤٠.

[٤٤] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٤١.

قومه، وقصة موسى مع فرعون فسنجد للاختلاف البيئي أثراً ملموساً؛ فقد كان للعشيرة شأن وقيمة في قصة شعيب عليه السلام، فحيث وصل مع قومه إلى طريق مسدود كان المواقف الاستكباري يتراوح بين إخراجه من الأرض التي يحيا ويعيش فيها وإجباره على ترك ما يدعو إليه ليسود منهج الباطل، وبين التهديد بالرجم وهو الإعدام حتى الموت لولا أن رهط شعيب كانوا العقبة التي تمنعهم من إخراجه وقومه من أرضهم. في حين نجد الموقف الاستكباري الفرعوني قد ترجم التهديد إلى تنفيذ، فتبع موسى ومن آمن معه لاستئصالهم والقضاء عليهم حتى لا يعود لمنهج الله أي أثر في حياة الناس؛ لقد تجرأ فرعون على مثل هذا العمل بسبب الإمكانات المادية الضخمة التي كان يمتلكها من أموال طائلة، وجيوش جرارة، وشيء من حضارة مادية بناها[٤٥].

رابعاً: تصنيف الموضوع: وتأتي مرحلة تصنيف الموضوع تصنيفاً علمياً يقوم على الدقّة؛ ذلك إن أي موضوع يتكون من مقدمات، ومن قضية، أو مجموعة قضايا تتصل اتصالاً يستحيل معه الفصل بينها، وهذه القضية أو القضايا تشكل صلب الموضوع ومحوره الرئيسي، وهذه ترتب على ضوء خلفية معينة هي مجموع الملابسات، والأوضاع التي رافقت نزول الآيات الكريمة. ويتكون الموضوع كذلك من أدلة وبراهين سيقت من أجل الإقناع، ودفع كل الشبهات الواردة حوله، ولم تأتِ الأدلة في كثير من الأحيان إلاّ لدفع ما يثار من شبهات مقصودة، أو غير مقصودة؛ لأن الناس خلقوا مفطورين على دين الحق، وتوحيد الله سبحانه وتعالى. ويكون للموضوع كذلك خاتمة تتمخض عن جملة نتائج لذلك الموضوع، هذا بالإضافة إلى الدروس والعبر والإرشادات، والتوجيهات المتنوعة التي تتبدى من ثنايا آيات الموضوع، وتهم المسلم أينما كان. إضافة إلى أن هناك أسلوب عرض، أو منهجاً معيناً يتخذه القرآن في بيان، وعرض ذلك الموضوع. وليس بالضرورة أن يكون المنهج الذي يستخدمه القرآن واحداً في عرض موضوعاته، ولكن ذلك يتبع طبيعة الموضوع وقضاياه، وزمن معالجة القرآن له. وينبغي أن تصنف هذه العناصر وتوضع تحت عناوين قرآنية، أو مستوحاة من نصوص القرآن الكريم نفسه[٤٦].

خامساً: الالتفات إلى الواقع أثناء التفسير: الواقع الذي نريد للمفسر أن يعني به في دراسته لموضوعات القرآن، هو واقع تنزيل القرآن الكريم، وما واكبه من أوضاع وأحوال فقد كان القرآن شاهداً عليها أيام نزوله؛ لأن القرآن الكريم ينبني معالجته للواقع البشري بمنهجية تتميز بأسس عامة، وأطر ثابتة. ويترك للعقل البشري حرية السير ضمن تلك الأطر، ومحاولة الوصول إلى موقف، أو حقيقة بتفهم ظروف

[٤٥] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٤١.

[٤٦] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٤٢.

وأحوال وبيئة عصره، والتطلع إلى واقع عصره محدثاً الانطلاقتين اللتين قررناهما سابقاً؛ انطلاقة من الواقع إلى القرآن، وانطلاقة من القرآن إلى الواقع؛ لتتم عملية التخلية والتحلية في أوسع معانيها، وآفاقها على مستوى الفرد والأمة. ثم يفسر آيات الموضوع، ويكون كذلك مرتبطاً بالحياة المعيشة، والواقع الحياتي بكل أبعاده، فيكتسب الصفة العملية الواقعية الشمولية. ولابد من أن يكون هذا التفسير تفسيراً متصلاً، وغير منفصل عن آيات الموضوع نفسه، وأن يلتحم التفسير التحليلي في خدمة الموضوع المدروس، وليحذر المفسر الانشغال بعرض الاختلافات اللغوية، والمسائل النحوية، والتفريعات الفقهية، والروايات الأثرية، والمباحث الكلامية، والمناقشات الفلسفية، والمباحث العلمية إلاّ بالقدر الذي يخدم ذلك الموضوع، ولا ينبغي له أن يختزل الموضوع المدروس لحساب التفسير التحليلي وقضاياه المتشعبة؛ لأنها وسائل تقود إلى المعنى وتوصل إليه، وهذه الوسائل لا تتحول إلى غايات، ومن الممكن بعد شرحها أن نفتح القلوب بالمعاني الثنائية للوحي الإلهي، وكيف يهدي الله الناس إلى الحق بما شرع فهي إذن ليست مقصودة لذاتها، وهنا يلتقي التفسيران: التحليلي والموضوعي في توافق عجيب، وانسجام علمي وعملي رائع[٤٧].

سادساً: اسم الموضوع: نطلق على هذا الموضوع اسماً مستنبطاً من وحي القرآن الكريم، أو مضافاً إليه قد المستطاع، كأن نقول: العدل في القرآن، أو حقيقة العدل كما يصورها القرآن، شريطة ألاّ تكون نصوص أخرى قد ساهمت في تشكيل العناصر الأساسية للموضوع، فإن كان كذلك فإن الاسم يتخذ مدلولاً أوسع. وقد تكون هذه العناصر الأخرى أحاديث للرسول ﷺ، أو أقوالاً وآراء للصحابة والتابعين، أو لمن بعدهم من علماء الأمة، أو غير ذلك من أقوال تعطي تفصيلات أكثر عن موقف القرآن الكريم، والأولى بهذه كلها أن تكون في نطاق البيان للنصوص القرآني، وعلى رأي الكثيرين فإن السنة مبيّنة للقرآن شارحة له لم تستقل عن القرآن في البيان، إذن فليكن الباحث مع القرآنية في أصولها الناصعة، وبيانها الجزل المعجز[٤٨].

سابعاً: ضوابط أخرى: لا ينبغي أن يدخل المفسر إلى الموضوع القرآني بمقررات سابقة، أو بأفكار مذهبية؛ لأن دوره يتمثل في القيام بعملية استقرائية استكشافية باحثة عن المواقف، والحقائق، والأصول القرآنية الخالصة. يريد أن يسير مع النص القرآني، لا أن يسير النص القرآني معه ليوافق هوى في نفسه، أو مصلحة يبتغيها من وراء ذلك النص كما فعل أصحاب المذاهب والفرق الضالة حيث ضربوا آيات القرآن بعضها ببعض حتى كانت الآية من القرآن حجّة للخصم، وحجّة عليه في الوقت نفسه. ولا ينبغي له أن

[٤٧] الغزالي، محمد، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل** (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. ط، ١٩٩١م)، ص ١٢٤.
[٤٨] الدغامين، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، ص ٤٤.

يحمل النص القرآني إلى أي ساحة يريدها، بل يجب أن يتجرد من كل مقررات سابقة، ويسير مع النص القرآني ليصل في النهاية إلى هداية القرآن من خلال مواقفه، وحقائقه، وأصوله التي رسمها لحياة الخلق. ويلزمه في حال آخر أن ينطلق إلى القرآن الكريم من الواقع حاملاً فكرة، أو تصوراً، أو مقولة ليرى حكم القرآن فيها، واستنطاق القرآن في شأنها. وقد أضاف الدكتور أحمد جمال العمري في كتابه "دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني" أسساً في منهج البحث لا تقتصر على البحث في التفسير الموضوعي ولكنها أسس عامّة منها:

١- التوفيق بين الآيات بعضها مع بعض؛ لإزاحة قد تتبادر إلى الأذهان مما هو موهم بالتناقض أو الاختلاف[٤٩].

٢- تفسير الآيات أثناء عرضها تفسيراً موضوعياً، فعلى هذا الأساس يكون التفسير الموضوعي بنداً من بنود هذه المنهجية.

٣- الالتزام بشروط البحث العلمي، والالتزام بالحيادية التامّة في البحث[٥٠].

٤- تكميل الموضوع بما ورد من حديث رسول الله ﷺ إن احتاج الأمر إلى ذلك، حتى يكمل له هيكله، ويزداد وضوحاً وبياناً[٥١].

وبعد هذا العرض الموجز عن منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم، وكيفية الوصول إلى دراسة أي موضوع في القرآن، نأتي إلى بيان كيفية البحث عن الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة.

المطلب الثاني: منهجية البحث في الوحدة الموضوعية في السورة الواحدة:

لقد أُلِّفت مؤلفات قديماً وحديثاً في تفسير سورة واحدة، وربما خصّ بعض العلماء تأليفاً مستقلاً حول سورة واحدة، نظراً لمكانة هذه السورة الخاصة، أو لاهتمامه بغرض تعرضت له السورة. ولتفسير السورة الواحدة تفسيراً موضوعياً لابد من اتباع خطوات منهجية علمية ليؤتي العمل ثماره، وتكون الثمار المتوقعة مكافئة للجهد المبذول. ونذكر فيما يلي هذه الخطوات بشكل سريع وموجز:

١- التقديم للسورة بتمهيد يعرّف فيه بأمور تتعلق بالسورة من ذكر سبب النزول، والمرحلة التي نزلت فيها السورة: مكية، متقدمة، متوسطة، أو متأخرة، مدنية، متقدمة، أو متأخرة، وما ورد فيها من أحاديث صحيحة تحدد أسماءها، أو بعض خصائصها أو فضائلها.

---

[٤٩] العمري، أحمد جمال، **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني** (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، ١٩٨٦م)، ص ٧٢.

[٥٠] العمري، **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني**، ص ٧٥.

[٥١] الفرماوي، **البداية في التفسير الموضوعي**، ص ٦٢.

٢- محاولة التعرف على الهدف الأساسي في السورة والمحور الذي تدور حوله، ويكون من خلال دلالة الاسم، أو الموضوعات المطروحة في السورة، أو أخذاً من المرحلة التي نزلت فيها.

٣- تقسيم السورة وخاصة السور الطويلة إلى مقاطع، أو فقرات تتحدث آياتها عن عنصر من عناصر الهدف، أو مجال من مجالات المحور، واستنباط الهدايات القرآنية منها وذكر المناسبات بينها.

٤- ربط هذه المقاطع وما يُستنبط من هدايات من كل منها بالهدف الأساسي للسورة بقصد إظهار هذا الهدف، وكأنها جداول صغيرة تمدّ المجرى الأساسي للنهر، أو الشطآن الملتفة حول جذع الدوحة، تقوي أصلها وتدعم ساقها وتآزر متنها لتستوي على سوقها وتعجب الناظرين فيها. هذا فيما يتحدث عن كيفية البحث عن الموضوع في السورة الواحدة[٥٢]. وبالإضافة إلى تلك الخطوات، هناك بعض الخطوات – رغم أنها شبيهة بالخطوات السابقة – أيضاً التي ينبغي على المفسر أو الدارس الذي يريد البحث والتعمق في دراسة الوحدة الموضوعية في سورة ما، وقبل البدء في تفسير السورة لابد من دراسة أولية السورة تحت عنوان (بين يدي السورة أو على هامش السورة) بحيث يتناول فيها:

أ- معرفة سبب نزولها أو أسباب نزول مقاطعها، فربما نزلت السورة جملة واحدة، ويكون لها سبب نزول واحد، وربما نزلت السورة متفرقة لمناسبات متعددة، وعند التمعّن تجد أن عمومات السورة أو المحور الذي تدور حوله السورة يربط هذه المقاطع، أو الآيات بنظام معين، فمعرفة أسباب النزول تعين على التعرف على هذا النظام الذي يجمع عقد السورة، أو المحور الذي تدور السورة حوله.

ب- التعرف على الهدف الأساسي للسورة، أو المحور الذي تدور السورة حوله، وذلك من خلال:

١- التعرف على دلالة اسم السورة أو أسمائها التي ثبتت عن طريق الوحي، أي بالتوقف عن رسول الله ﷺ.

٢- ويمكن التعرف على هدف السورة أو محورها من خلال استعراض الأحداث البارزة، أو القضايا الأساسية التي تناولتها السورة. فلو أمعنا النظر في القضايا البارزة في السورة لوجدنا أن بينها رابطاً يربطها، وقد يدق هذا الرابط فلا يدرك إلا بعد دراسة السورة دراسة عميقة، ومعايشة أجوائها، وتفيُّؤ ظلالها.

٣- كما يمكن التعرف على هدف السورة أو أهدافها من خلال المرحلة الزمنية التي نزلت فيها السورة، فمن المعلوم أن السور المكية أكّدت على تقرير أربعة أمور: الإيمان بالله وحده، والإيمان بالبعث بعد الموت، والإيمان بالرسالات السماوية، والدعوة إلى أمهات الأخلاق. فإذا كانت السورة مكية فلا يخلو الأمر من أن يكون من أهدافها الأساسية هذه الأسس الأربعة مجتمعة أو متفرقة. والسور المدنية بالإضافة إلى تقرير ما سبق استهدفت بناء المجتمع الإسلامي على أسس من الإيمان والطاعة والتشريعات التفصيلية في شؤون الحياة كما استهدفت حماية المجتمع الإسلامي من الأخطار الداخلية والخارجية، بكشف خطط

[٥٢] مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص ٤٠.

المتآمرين الحاقدين الساعين في الأرض بالفساد من اليهود والمنافقين، فلا تخلو سورة مدنية من قضية البناء، أو الصيانة والحماية، فيمكن التعرف على الهدف الأساسي أيضاً من خلال التعرف على القضايا المعروضة في السورة، ومن خلال المرحلة الزمنية لتطور المجتمع الإسلامي أيضاً[٥٣].

٤- بالإضافة إلى ذلك كلها التعرف على علم المناسبات بين مقاطع السورة، ودورها في التعرف على هدف السورة أو محورها، فعند تقسيم السورة إلى مقاطع أو فقرات حسب ارتباط الآيات بعنصر من عناصر الموضوع لابد من الرجوع إلى كتب التفسير الموثقّة للإطلاع على الروايات الصحيحة من السنة النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين في تفسير الآيات، والرجوع إلى الكتب التي تناولت المناسبات بين الآيات في السورة الواحدة مثل تفسير مفاتيح الغيب لفخر الدين الرازي، ونظم الدرر في تناسب الآيات والسور لبرهان الدين البقاعي، وفي ظلال القرآن لسيد قطب، وذلك للإحاطة بمعاني الآيات ومحاولة التعرف على المناسبات بين هذه المقاطع، فقد تكون المناسبة جلية واضحة بينها، وقد تدق فلا تظهر، وقد تكون المناسبات بينها وبين محور السورة ظاهرة جلية، وقد تكون دقيقة خافية وكثيراً ما يكون التعرف على المناسبات بين المقاطع طريقاً لمعرفة الهدف الأساسي من السورة، أو المحور الذي تدور حوله السورة. وقد يكون النظر في فاتحة السورة وخاتمتها، وإبراز المشتركة بينهما دليلاً على الهدف الأساسي في السورة فكثير من السور القرآنية يرد فيها العجز على الصدر لترسيخ مفاهيم معينة أو التذكير بقضية جاءت السورة لبيانها[٥٤].

وبعد التعرف على هدف السورة الأساسي، وتحديد المحور الذي تدور حوله تتبلور المناسبات بين المقاطع جميعها وبين المقاطع والمحور، وبين الفاتحة والخاتمة، ويدرك الباحث وجه الاستطرادات التي وردت في السورة وتظهر له من الحكم والأسرار القرآنية على حسب ما أوتي من ملكة في الاستيعاب والغوص في المعاني[٥٥].

الخاتمة:

إن آثار إدراك المناسبات بين المقاطع والأجزاء في السورة يساعدنا كثيراً على التعرف على هدف السورة، وبالمقابل فإن ظهور الهدف في السورة يعيننا كثيراً على التعرف على علم المناسبات بين مقاطعها وفقراتها فالأضواء منعكسة على بعضها من الجهتين تنير السبيل أمام الباحث للسير بخطى ثابتة راسخة في بحثه، فلا يهمل هذا الجانب في التفسير الموضوعي أو الوحدة الموضوعية للسورة.

---

[٥٣] مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص ٤٣.

[٥٤] مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص ٤٥.

[٥٥] مسلم، **مباحث في التفسير الموضوعي**، ص ٤٦.

المصادر والمراجع:

الأصفهاني، الراغب، **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، تحقيق: نديم مرعشلي (بيروت: دار الفكر، د. ط، د. ت).

باجودة، حسن محمد، **الوحدة الموضوعية في سورة يوسف** (جدة: مكتبة تهامة، ط ٢، ١٩٨٦م).

الباقلاني، أبو بكر محمد بن الطيب، **إعجاز القرآن**، شرح وتعليق: محمد بن المنعم خفاجي (مصر: مطبعة محمد صبيح، د. ط، ١٩٥١م).

الجويني، مصطفى الصاوي، **مناهج في التفسير** (الإسكندرية: منشأة المعارف، د. ط، د. ت).

الجندي، درويش، **النظم القرآني في كشاف الزمخشري** (مصر: دار النهضة، د. ط، ١٩٦٩م).

حجازي، محمد محمود، **الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم** (القاهرة: دار الكتب الحديثة، د. ط، ١٣٩٠هـ/ ١٩٧٠م.

الخالدي، صلاح عبد الفتاح، **التفسير الموضوعي بين النظرية والتطبيق** (الأردن: دار النفائس للنشر والتوزيع، ط ١، ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م).

الدغامين، زياد خليل، **منهجية البحث في التفسير الموضوعي للقرآن الكريم** (عمّان: دار البشير، ط ١، ١٤١٦هـ/ ١٩٩٥م).

الرومي، فهد بن عبد الرحمن، **منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير** (بيروت: مؤسسة الرسالة، د. ط، ١٤١٤هـ).

زكريا، أبو الحسين أحمد بن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، تحقيق: عبد السلام محمد هارون (بيروت: دار الجيل، ط ١، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

سعيد، عبد الستار فتح الله، **المدخل إلى التفسير الموضوعي** (بور سعيد: دار التوزيع والنشر الإسلامية، ط ٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م).

الصابوني، محمد علي، **إيجاز البيان في سور القرآن** (د. م: مكتبة الغزالي، ط ٢، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م).

عامر، فتحي، **بلاغة القرآن بين الفن والتاريخ** (الإسكندرية: منشاة المعارف، د. ط، د. ت).

الفراهي، عبد الحميد، **دلائل النظام** (الهند: المطبعة الحميدية، د. ط، ١٣٨٨هـ).

الفرماوي، عبد الحيّ، **البداية في التفسير الموضوعي** (مصر: د. ن، د. ط، ١٩٨٤م).

قطب، سيد، **في ظلال القرآن** (بيروت: دار الشروق، ط ١١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م).

العمري، أحمد جمال، **دراسات في التفسير الموضوعي للقصص القرآني** (القاهرة: مكتبة الخانجي، د. ط، ١٩٨٦م).

الغزالي، محمد، **تراثنا الفكري في ميزان الشرع والعقل** (فرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، د. ط، ١٩٩١م).

مسلم، مصطفى، **مباحث في التفسير الموضوعي** (دمشق: دار القلم، ط ١، ١٤١٠هـ/ ١٩٨٩م).